

تشخيص الأمراض وأسبابها وطرق علاجها في حضارة العراق القديم
(الطبابة بالماء أنموذجاً)

الأستاذة: سامية معوشي

جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة -

الملخص:

تعتبر الأمراض والأوبئة الفتاكة من المشاكل التي كانت تعصف بصحة الانسان منذ القديم، ولقد عزا العراقيون أسباب حدوث الأمراض إلى الشياطين والأرواح الشريرة التي تسلطها الآلهة على الناس لمعاقبتهم على ذنوبهم، وخلفوا بشأن ذلك العديد من الملاحم والأساطير الدينية مثل "أسطورة أتراخاسيس" و"ملحمة جلجامش"، ولخطورة بعض الأمراض فقد تنبأوا بحدوثها من خلال رصد حركة الكواكب والنجوم، وكذلك نظروا في أحشاء القرايين والنذور لتجنب خطرهما وأخذ الاحتياطات اللازمة بشأنها، وبصرف النظر عن العلاج الطبي فقد لجأوا إلى الكهنة والمعزمين الذين استعملوا وسائل عديدة للعلاج منها التطبيب بالماء، فالمياه هي أصل الوجود والحياة، ولذا فهي قادرة على تطهير الانسان من العلل والأمراض حسب معتقداتهم الدينية.

Abstract:

The diseases and deadly epidemics are problems that have plagued human health since ancient times. The Iraqis attributed the causes of disease to the demons and evil spirits that the gods cast upon people to punish them for their sins. They left behind many epics and religious legends such as the myth of Atrakhasis and the Epic of Gilgamesh, Given the danger of certain diseases, they predicted that they would happen by observing the movement of planets and stars, and They also looked at the bowels of offerings and vows to avoid their danger. In addition to medical treatment, they resorted to priests, who used many methods of treatment, including water treatment because the Water is the origin of existence and life, Therefore, he is able to purge man of diseases according to their religious beliefs.

مقدمة:

لقد اعتقد الانسان منذ أقدم العصور التاريخية أن الأمراض من صنع الأرواح الشريرة، فعمل على إبطال ضررها بالشعوذة، وصار السحرة والدجالون يمارسون علاج المرض على أساس تلك الأوهام، ولما ظهر الدين في عقيدة الانسان صار هذا يعتقد أن المرض من عمل الآلهة⁽¹⁾، وأنه بمشيئتها كانت تُسلط العفاريت والأرواح الشريرة المسببة على البشر ممن اقترف ذنباً مشيئاً بحقها أو انتهك حرمتها أو مقدساتها⁽²⁾، وينعكس هذا الاعتقاد القائل أن المرض عقاب إلهي في العديد من الملاحم والأساطير الدينية العراقية القديمة، فالبطل "أنكيدو" في "ملحمة جلجامش"⁽³⁾ عاقبته الآلهة على ذنوبه بالمرض الذي وضع حدّاً لحياته بعد أن لزم الفراش لمدة اثني عشر يوماً، وإلى ذلك تشير الأسطورة بالقول:

«...ولما انقضى اليوم الذي رأى فيه أنكيدو الرؤيا

اشتد به المرض فظلاً ملازماً فراشه يوماً وثانياً وثالثاً

ورابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً وثامناً وتاسعاً وعاشراً

وثقل المرض على أنكيدو، ومضى اليوم الحادي عشر والثاني عشر

(1)- كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، وزارة والثقافة والإعلام العراقية، العراق، 1984، ص24.

(2)- سامي سعيد الأحمد، "الطب العراقي القديم"، مجلة سومر، مج30، ج1 و2، مديرية الآثار العامة، بغداد، 1974، ص91.

(3)- ملحمة جلجامش: تعتبر من أشهر الأساطير والملاحم في بلاد الرافدين، ويرجع الفضل في نظمها إلى البابليين الذين شكلوا منها ملحمة متكاملة، شملت العديد من المواضيع في مقدمتها لغز الحياة والموت وما بعد الموت والخلود، اكتشفت لوحاتها في أنقاض مكتبة آشور بانيبال بنينوى. انظر:

Don Nardo & Robert B. Kebric, *Encyclopedia of Ancient Mesopotamia*, Greenhaven Press, U.S.A, 2007, p107.

أكثر تفاصيل عن هذه الملحمة أنظر: نائل حنون، ملحمة جلجامش-ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي، ط1، دار الخريف، دمشق، 2006.

وهو لا يزال راقداً على فراش المرض
...فدعا إليه جليجامش وكلّمه قائلاً:
يا جليجامش لقد حلّت بي اللّعة...
أما أنا فسأموت ذليلاً حتفي أنا...»⁽¹⁾.

وفي ملحمة "أتراخاسيس" نقرأ أيضاً كيف أن المرض يُسلّط على البشر
نتيجة ذنوبهم، وإلى ذلك تشير الأبيات التالية من الأسطورة بالقول:
«... ولم تمض بعد ألف ومئتا سنة
حتى توسعت البلاد وتكاثر الناس
وأصبحت البلاد تخور كالثور
فانزعج الاله أنليل من ضجيجهم
أجل لقد سمع أنليل صخبهم
فقال مخاطباً الآلهة العظام:
لقد أصبح صخب البشر شديداً عليّ
وقد حرمني ضجيجهم من النوم
فلنأمر بالوباء ينتشر بين الناس»⁽²⁾.

وهو ما وقع بالفعل كما جاء في مضمون الأسطورة التي وصفت الحالة التي
آل إليها الناس بعدما أُمّت بهم الأمراض والأسقام، بالقول:
«...فأصبحت الأرحام ضامرة، فلم تلد مولوداً،
وعندما حلّت السنة الثانية
أصبحوا يعانون من الحكّة،
وعندما حلّت السنة الثالثة
تشوّهت ملامح الناس بفعل الجوع،
وعندما حلّت السنة الرابعة

⁽¹⁾ - طه باقر، ملحمة جليجامش -أوديسة العراق الخالدة-، (دن)، بغداد، (د.ت)، ص ص71،72.

⁽²⁾ - فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع المسمارية، جامعة بغداد، 1975، ص56.

قَصُرَتْ سيقانهم الطويلة

وأصبت أكتفاهم الواسعة منكماشة،

وأصبحوا يسرون محدوبين في الشوارع

وعندما حَلَّت السنة الخامسة

أصبحت الأوبئة تراقب الأمم وهي تدخل البيت...»⁽¹⁾.

ولم يكن المرض يصيب الشخص في بلاد الرافدين لذنوب ارتكبه بذاته اتجاه الآلهة، بل في بعض الأحيان قد يُصاب بالمرض نتيجة إثم ارتكبه شخص من أفراد عائلته، ومن أمثلة ذلك دعاء توجه به مريض للإله ليرفع غضبه عنه يقول فيه: «ارفع عني ما يحزنني، الذنب الذي ارتكبته في لحظة ضعف ونزوة شريرة، وأزل عني أوجاعي وليغادرني مرضي لخطيئة أعرف أنني أؤا ولا أعرف أنني ارتكبتها، لخطيئة ارتكبتها والدي أو جدي أو أخي الأكبر أو أختي الكبيرة، أو الخطأ التي ارتكبته عائلتي أو عشيرتي أو القبيلة، إن غضب الإله أو الآلهة يقع بثقله علي»⁽²⁾.

وكان الحنث بالقسم ونقض المعاهدات يعد من الذنوب والآثام الجسيمة التي ترتكب ضد الآلهة ومدعاة لتسليط الأمراض أيضاً⁽³⁾، فعندما نقض "أوتع (uate) عهده مع "أشور بانيبال" أصابه وجيشه طاعون "إيرا"⁽⁴⁾، كما كان التمرد والخروج عن طاعة الملك الشرعي وإثارة العداء ضده من مسببات المرض، ففي نص عائد للملك "أشور بانيبال" يعود لأيام تمرد أخيه "شمشي-شوم-اوكين" نقرأ فيه: «

⁽¹⁾ - نفسه، ص ص 62، 63.

⁽²⁾ - فاتن موفق فاضل، " الأدعية في المعتقدات العراقية القديمة"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج 3، ع 8، جامعة تكريت، كلية التربية، العراق، 2011، ص ص 12، 13.

⁽³⁾ - عامر سليمان وآخرون، حضارة العراق، ج 2، (د.ن)، بغداد، 1985، ص 129.

⁽⁴⁾ - إيرا: إله الطاعون والأمراض الفتاكة ضد البشر، وحده البابليون باله الموت نرجال، وهو مصدر البؤس والمآسي، سيطر على مدينة بابل أثناء غياب الإله مردوخ فكان سببا في بلائها. أنظر: عبد المنعم المحجوب، المعجم السومري، دار الكتب العلمية، 2016، ص 280.

إلى ذلك الذي دبّر الشر ضد آشور بانيبال وأثار العداء عليه سينزل عليه الموت من خلال-تفشي وباء الطاعون»⁽¹⁾.

وتستمر وتتأكد الإشارة إلى اعتبار المرض سلاحًا تعاقب به الآلهة البشر في نصوص الإنذار الأكديّة، التي نذكر منها الأمثلة الآتية:

* إذا أصيب برأسه (...) وأذناه لا تسمع فإن يد عشتار.

* إذا كان رأسه مريضاً، وقد مسّ ظهره وكان صدره يؤلمه بصورة مستمرة وأن بطنه لن يتوقف عن المغص (...). وكان يأكل ويشرب بصورة طبيعية غير أن شهيته للأكل والشرب قد سُدّت ولم يعد يشتهي الأكل والشرب فإن يد عشتار.

* إذا كانت أصداغ المريض متوترة وكانت به حرارة أو كانت به برودة فإن يد الإله قبع قد استحوذت عليه.

* إذا كان وجهه مُتشنجاً وكانت غمامة تلوح أمام عينه فإنها يد إله أبيت⁽²⁾.

* إذا كان وجهه مشنجا وكانت يداه وقدماه ترتجفان في اليوم التاسع والخمسين فإنها يد الإله دافن.

* إذا أصيب في يديه وفي مرفقيه فإنها يد عشتار⁽³⁾.

ونظراً لخطورة بعض الأمراض والأوبئة التي كانت تسلطها الآلهة على البشر، فقد حرص العراقيون القدماء على التنبؤ بحدوثها من أجل اتخاذ الإحتياطات اللازمة للتقليل من أضرارها بقدر الإمكان، وذلك من خلال تطلّعهم إلى مراقبة حركة بعض الكواكب والنجوم لأغراض فألّية، فنجدهم على سبيل المثال يتنبأون بانتشار مرض الطاعون من خلال بعض الوضعيات التي يكون عليها القمر فمثلاً: " عند بزوغ القمر في اليوم الأول من الشهر، فإن هبّت ساعتها رياح شرقية،

⁽¹⁾-أسامة عدنان يحي، السحر والطب في الحضارات القديمة، دار أمواج، الأردن، 2015، ص 30، 31.

⁽²⁾- عبد اللطيف البدري، التشخيص والإنذار في الطب الأكدي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1976، ص 33.

⁽³⁾ - نفسه، ص 50.

فستكثر الأمراض في هذا الشهر"، أما "عند بزوغ القمر في اليوم الأول من الشهر، وكان الكوكب (sibzianna) متلاًثاً، فإن الطاعون سيحل بالبلاد"⁽¹⁾. وكذلك نظروا في أحشاء القرايين والنذور واستدلوا بها على حدوث الأوبئة والأمراض، وعن ذلك نقراً: "إذا وجد أخدود بين قناتي الكبد والصفراوتين فإن نرجال⁽²⁾ سيثور ويعم الطاعون في البلد"، وفي نص فآلي آخر يذكر: "إذا كان الطحال...لونه فاتحاً فإن وباء سيحل بالناس"⁽³⁾، كما تنبأوا أيضاً بالشفاء من بعض الأمراض كذلك من خلال رصد حركة بعض الأجرام السماوية من كواكب ونجوم، وإلى ذلك يشير أحد الفؤول بالقول: "إذا ظهر الزهرة وقت غروب الشمس في مدار السرطان فإن المرضى سوف يتعافون، وأن الحوامل سيكملن عدتهن بسلام"⁽⁴⁾، وفي نص فآلي آخر نقراً فيه: "...إذا اقترب المشتري من الجوزاء، سيلتهم الآله (طاعون البلاد)..."⁽⁵⁾.

والأمراض التي هي من وقع الآلهة على البشر حسب معتقدات القوم الدينية، فالشفاء منها كذلك يعتمد على تدخل الآلهة، ولأجل ذلك خصص

⁽¹⁾- هيثم أحمد حسين عبو الجواري، نصوص الفأل البابلية في ضوء المصادر المسمارية، رسالة ماجستير في الآثار القديمة، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق، 2005، ص21.

⁽²⁾- نرجال: إله من آلهة العالم الأسفل، كان المركز الرئيسي لعبادته مدينة "كوثي" (Kutha) حيث معبده المسمى "إمسلم" (LÉ-Mes-Lame)، وقد كان لعبادته بهذه المدينة مركز ضخيم حتى غدت تُعرف باسم "مدينة الأموات"، حتى لنرى عشتار عند نزولها للعالم الأسفل يقال لها: «ادخلي يا سيدتي ألا لتستقبلك بفرح»، وقد ورد ذكر معبده إلى جانب معبد الإله مردوخ "الاييساجيل" (LÉ-Sag-il) ببابل، ومعبد "أي-زي-دا" (LÉ-Zi-da) للإله "نابو" بمدينة بورييا في تسجيلات للملك تيجلات بلاصر الثالث (744ق.م-727ق.م). أنظر:

-Dhorme Édouard, *Les Religions De Babylonie Et D'assyrie*, 2^{ed}, Presses Universitaire de France, Paris, 1949, p43.

⁽³⁾- هيثم أحمد حسين عبو الجواري، المرجع السابق، ص23.

⁽⁴⁾- هيثم أحمد حسين عبو الجواري، المرجع السابق، ص27.

⁽⁵⁾- شيماء علي أحمد، الفلك في العراق القديم من القرن السابع الى القرن الرابع (ق.م)، رسالة دكتوراه في الآثار القديمة، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق، 2006، ص97.

العراقيون بعض الآلهة لشؤون الطب والتداوي والشفاء، وفي مقدمتهم الإله "أنكي" رب الطب الأعلى، وهو إله الماء الذي هو مادة الطب⁽¹⁾، وإليه يعود الفضل في تخليص الناس من القحط والمرض اللذين أنزلهما الإله أنليل⁽²⁾ لمعاقبة الناس في قصة الطوفان البابلية "أتراخاسيس"⁽³⁾، وكان وسيطه بين الناس الإله "مردوخ"⁽⁴⁾، ويليه في المرتبة آلهة آخرون مثل الإله "نينورتا" ابن الإله "أنليل"، الذي سمي بـ"الطبيب القوي" (A.Zu.Gallu) وزوجته الآلهة "كولا"، فضلاً عن زوجته الآخرين وهما "بابا" و "نينكراك" المسؤولتين عن رعاية صحة البشر وشفاء أمراضهم⁽⁵⁾، وهناك كذلك الإله "نينازو" ويعني اسمه في اللغة السومرية "السيد الطبيب"، وكان إله الشفاء والاعتسال في العالم الأسفل، وكانت عبادته منتشرة في منطقة دياتي حتى عصر سلالة أور الثالثة⁽⁶⁾، وإلى جانبه الربة "إرشكيجال" ربة العالم الأسفل التي اختصت بمعالجة أنواع من الحصى، وعُرف عنها بامتلاكها لينبوع من الماء (ماء

⁽¹⁾- خزعل الماجدي، بخور الآلهة-دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين-، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1998، ص201.

⁽²⁾- الإله أنليل: ويعرف بالأكدية باسم "إليل" (Ellil)، يقال بأنه من نسل الإله "آن" وشقيق الآلهة "أرورو" الآلهة الأم والهة الولادة، وزوجته الآلهة "نينليل"، ومن بين أبناءه "إنانا" والإله "أدد"، "نانا-سوين"، ونرجال، ونينورتا أونينجرسو، وبابيلساج وكذا "نوسكو". أنظر:

Jeremy Black & Anthony Green, *Gods, Demons and Symbols of Ancient Mesopotamia, An illustrated Dictionary*, 2^{ed}, the British Museum Press, London, 1998, p76.

⁽³⁾- فاضل عبد الواحد علي وآخرون، موسوعة الموصل الحضارية، مج1، ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، العراق، 1991، ص306.

⁽⁴⁾- الإله مردوخ: الاسم السومري للإله الأكدي "أ.مُر.أُت" (Amar.Utu)، يوصف أحياناً بأنه أخ بعل. أنظر: عبد النعم المحجوب، المرجع السابق، ص 282.

⁽⁵⁾- Don Nardo & Robert B. Kebric, Op.Cit, p 209.

⁽⁶⁾- د.ادوارد وآخرون، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) في الحضارة الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقيّة)، تر: محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي، لبنان، (د.ت)، ص170.

الحياة) في العالم الأسفل، الذي يزيل حسب تصورهم كل ألم ويرجع الموتى إلى الحياة⁽¹⁾.

وإلى هؤلاء الآلهة استنجد العراقيون كذلك بالآلهة الثمانية اللائي ولدتهن الربة "نخرساج" لتقوم كل منهم بشفاء أحد الأعضاء العليلة من جسم الانسان، ويرد ذكر أسماء هؤلاء الآلهة الذين كانوا وراء شفاء الاله "أنكي" من أسقامه في الأسطورة الدينية المعروفة بـ"أسطورة الفردوس"⁽²⁾، التي تذكر:

«...ننخرساج أجلس أنكي في فرجها:

ما الذي يوجعك يا أخي؟

إن...هو الذي يوجعني

لقد استولدت لك الالهة أبو

ما الذي يوجعك يا أخي؟

إن فكّي هو الذي يوجعني

لقد استولدت لك الالهة ننتولا

ما الذي يوجعك يا أخي؟

إن سّيّ هو الذي يوجعني

لقد استولدت لك الالهة ننسوتو

ما الذي يوجعك يا أخي؟

إن فّي هو الذي يوجعني

لقد استولدت لك الالهة ننكاسي

ما الذي يوجعك يا أخي؟

إن...هو الذي يوجعني

لقد استولدت لك الالهة نازي

⁽¹⁾ - سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص ص90، 91.

⁽²⁾ - عن هذه الأسطورة انظر: صمويل نوح كريم، من ألواح سومر، تر: طه باقر، مر: أحمد فخري، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت)، ص ص 239-249.

ما الذي يوجعك يا أخي؟
إن ذراعي هي التي توجعني
لقد استولدت لك الالهة آزيمو
ما الذي يوجعك يا أخي؟
إن ضلعي هو الذي يوجعني
لقد استولدت لك الالهة ننقي
ما الذي يوجعك يا أخي؟
إن...هو الذي يوجعني
لقد استولدت لك الالهة إنشاج»⁽¹⁾.

ولأن العلاج كان كثيرًا ما يتضمن الرقى والتعاويذ لاسترضاء الآلهة، والحصول على مساعدتها في شفاء المرضى فإن الأطباء غالبًا كانوا من الكهنة، وهنا يأتي دور الكاهن الذي يتوسط بين المريض والآلهة لإرجاع ما سببه الإنسان من أذى للنظام الإلهي⁽²⁾، ولذلك يقوم كاهن "الأشيبو" بتحديد الشيطان أو العفاريت التي تسببت في ذلك المرض، بعدها يتعرف على الإثم أو الخطيئة التي كانت السبب في مهاجمة الشيطان للمريض، وذلك بقراءة جداول الآثام لعل المريض اقترب بعضًا منها عمدًا أو سهوًا، وما إن يُشخص الذنب موضوع البحث حتى يتمكن "الأشيبو" من قهر العفريت الذي استغلّ الذنب لكي يحلّ في جسم المريض، ويكون المعزم

⁽¹⁾- فراس السواح، المرجع السابق، ص234، 235.

انظر أيضًا:

S.N.Kramer, *Enki and Ninhursag*, In :J.Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts*, Princeton New Jersey, 1969, PP37-40.

⁽²⁾- أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص253.

لابسًا الرداء الأحمر، لأنه اللون الواقى من الأرواح الشريرة، كما قد يلبس جلدًا يشبه السمكة ليؤكد صلته بـ "أيا" إله الطب والمياه⁽¹⁾.

ولما كانت علة الروح تتطلب التطهير الروحي، فقد كان العلاج الغالب في مثل هذه الأحوال ذا منحنى ديني، وفي هذا الشأن استعمل العراقيون وسائل متعددة لأغراض العلاج أهمها اللجوء إلى الكهنة والمعزمين لإخراج الأرواح الشريرة والعفاريت بوسائل متعددة، وباعتبار أن الماء حسب معتقدات القوم الدينية رمز الحياة فقد استعمل في طبابة الكثير من الأمراض الجسدية والروحية⁽²⁾.

ومن الأساطير الدينية التي أبانت دور الماء في تطهير الأبدان من الأمراض والأرواح الخبيثة ما جاء في مضمون الأسطورة الدينية السومرية الموسومة بـ "نزل إنانا إلى العالم الأسفل"⁽³⁾، فالالهة "إنانا" في رحلة نزولها إلى العالم الأسفل تحولت إلى جثة عُلقت على عمود بعدما وقعت عليها عين الموت من طرف أختها الالهة "إيرشكيغال" وآلهة الأنوناكي البسعة⁽⁴⁾، ولمساعدتها تدخل الاله "أنكي" وشكل مخلوقين هما "كوجارو" و"كالاتورو"، يحمل الأول لها "طعام الحياة" والثاني "ماء الحياة"، وبعث بهما إلى العالم الأسفل وأمرهما بأن يرش عليها الماء وينثرا عليها الطعام ستين مرة، وبذلك عادت الحياة إلى الالهة "أنانا"⁽⁵⁾، كما تشير إلى ذلك الأبيات التالية من الأسطورة التي تقول:

«...وقال الأب أنكي لكوجارو وكالاتورو

¹- Contenau Georges, *LA Vie Quotidienne a Babylone et en Assyrie*, Ed. Hachette, Paris, 1950, p206.

²- سامي سعيد الأحمد، "المرجع السابق، ص92.

³- عن هذه الأسطورة انظر: صمويل نوح كريم، المصدر السابق، ص ص261-282.

⁴- نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ط2، دار المعارف، مصر، 1967، ص270.

⁵- صمويل نوح كريم، أساطير العالم القديم، تر: أحمد عبد الحميد يوسف، مر: عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974، ص ص87، 88.

...وعلى الجثة المشدودة إلى وتدها وجّها[.....]
وانثرا عليها من ماء الحياة ستين مرة، ومن طعام الحياة ستين مرة
فتنهض إنانا من مرقدها حقًا وصدقًا...
على الجثة المشدودة إلى وتدها وجّها[.....]
ونثرا عليها من ماء الحياة ستين مرة، ومن طعام الحياة ستين مرة
فنهضت إنانا، وصعدت من عالم الأموات...»⁽¹⁾
ومن جملة الأمراض التي كان يُستعمل فيها الماء للتطبيب مرض اليرقان
الذي يكون سببه دخول جان خبيث يدعى "رابيصو" في الجسد فيسكن فيه ولا
يخرج منه، ولطرد الجان من الجسد يستعمل الماء، حيث يتم رش الماء سبع مرات
على وجه المريض وجسمه، ويتبع ذلك قراءة تعويذة على لسان الكاهن يقول فيها:
« مردوك،
يا ابن أيا،
بالماء الصافي،
سبع مرات ثم سبع مرات،
رش (المريض)،
طهر (المريض)،
نق (المريض)،
وأبعد عنه رابيصو الخبيث،
واحلل شيدو الصالح ولماصو الطيب،
في جسده واجعلهما يستقران فيه،
أعوذ بالسماء (منك يا رابيصو)،
أعوذ بالأرض (منك يا رابيصو)⁽¹⁾.

⁽¹⁾ - فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ط1، دار علاء الدين، سورية، 2006، ص193.

كما نقرأ في تعاويد دينية كثيرة عن استعمال الماء في تطهير المريض من الأرواح الخبيثة التي تسكن جسده، ففي إحدى التعاويد يرشد فيها الإله "أيا" ابنه مردوخ بمعالجة مريض مصاب بصداع إثر دخول جان خبيث إلى جوفه برشه بالماء، وإلى ذلك يشير النص بالقول:

« ورآه مردوك (أي المريض)

فدخل البيت وتقدم إلى والده أيا

يا أبي أيا إن تيؤ قد خرج من إكور

وتكلم معه مرتين

لا أدري ما ذنب هذا الشخص (المريض)

لا أدري ما الطريقة لشفائه

فأجاب أيا ابنه مردوك⁽²⁾

يا بني ما الذي لا تعرفه حتى أبينه لك؟

يا مردوك ما الذي لا تعرفه حتى أبينه لك؟

إن ما أعرف تعرفه أيضاً

خذ طاساً واملأه ماء من مصب النهرين

واقراً على هذا الماء تعويدتك المطهرة

وبتعويدتك المطهرة المقدسة طهر

الشخص ابن إلهه ورش عليه بهذا الماء

⁽¹⁾ - محمود الأمين، "شعار سومر"، مجلة سومر، مج 8، ج 2، مديرية الآثار القديمة العامة، بغداد، 952، ص 227.

⁽²⁾ - مردوك أو مردوخ: الإله القومي لبابل، كان في الأصل إلهاً زراعياً ويرمز له بالثور وخواره الرعد وسلاحه القوس والسهم، أطلق عليه حمورابي اسم ابن "أيا" إله الحكمة ومياه العمق. انظر: هنري. س. عبيودي، معجم الحضارات السامية، ط 2، جروس برس، بيروت، 1992، ص 782. أنظر كذلك:

MM. J. Oppert & J. Menant, Documents Juridiques de L'Assyrie et de la Chaldée, Maisonneuve et C^e Libraires, Paris, 1977, 146.

(وامسح به جبينه...) واعصب رأسه
ولياكل في ذلك اليوم حتى يشبع
وعند المساء ارفع عصابه من رأسه
واطرحه في مكان فسيح
فعسى أن يخرج تيؤ من رأسه ويولي⁽¹⁾.

ولأهمية النهرين دجلة والفرات فقد استخدمت مياهها في التطبيب، ويرجع سبب استعمال مياه دجلة والفرات في معالجة بعض الأمراض إلى قداسة النهرين الدينية، فحسب معتقدات القوم الدينية هما من نتاج الآلهة⁽²⁾، وهو ما تشير إليه الأبيات الآتية من مضمون الأسطورة الدينية الموسومة بـ " أنكي وتنظيم الكون"⁽³⁾، التي نقرأ فيها عن قيام الإله "أنكي" بملا نهر دجلة والفرات بالمياه العذبة⁽⁴⁾، إذ يرد في الأسطورة:

«...وعندما وجّه أنكي الموقر نظرة إلى الفرات
رفع قامته وكأنّه ثور متلّّف
نصّب قضيبه ودفق منّيّه
فملاّ النهر بالماء المتلألئ
كما لو كان النهر بقرة في المراعي
تخور من أجل عجلها الذي بقي في الحظيرة[...]
ثم خضع له نهر دجلة بعد ذلك
كما يخضع لثور متلّّف
وهو منتصب القضيب يدفع «مهديه-العرس»

⁽¹⁾- محمود الأمين، المرجع السابق، ص231.

⁽²⁾- أحمد سوسة، المرجع السابق، ص443.

⁽³⁾- عن هذه الأسطورة وتفصيلها انظر: قاسم الشواف، ديوان الأساطير-سومر وأكاد وأشور- الحضارة والسلطة، ج3، ط1، دارالساق، لبنان، 1999، ص ص169-188.

⁽⁴⁾- طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية، بغداد، 1976، ص90.

وكثور وحشي عملاق في حالة النزو

جعل دجلة يشعر باللذة

والماء الذي سكه هكذا، كان متلألئاً

عذباً مسكراً...»⁽¹⁾

كما وتعكس ملحمة الخليقة البابلية "الإينوما-إيليش"⁽²⁾ الكيفية التي تم بها

خلق نهر دجلة والفرات من قبل الآله "مردوخ"، فقد جاء في النص ما يأتي:

«رَتَّبَ مردوخ رأسها(تيامة)⁽³⁾ وجمع فوقه جبلاً

فتحت فيه ينابيع وجرى منها الماء الحي

في عينها فتح الفرات ودجلة

وسدَّ منخراها واحتفظ بها للفيضانات

على صدرها كدَّس الجبال البعيدة

وثقب فيها تدفقات الماء لتجري الينابيع

وعند ثديها رفع الجبال السامقة

وفجَّرَ منها عُيُونًا وَأَحْيَا أَبَارًا»⁽¹⁾.

⁽¹⁾- قاسم الشواف، ديوان الأساطير-سومر وأكاد وأشور- أناشيد الحب السومرية، ج1، ط1، دار الساقى، لبنان، 1997، ص73، 74.

⁽²⁾- الإينوما-إيليش: أي "عندما في العلى"، وهي ملحمة بابلية حول أصل الوجود، وُجِدت موزعة على سبعة ألواح فخارية أثناء الحفريات التي كشفت عن قصر الملك "آشور-بانيبال" ومكتبته، ويعود تاريخها إلى مطلع الألف الثاني ق.م. أنظر كارم محمود عزيز، أساطير التوراة الكبرى-تراث الشرق الأدنى القديم- ط1، دار الحصاد، دمشق، 1999، ص53، 54. للمزيد عن هذه الأسطورة وترجمتها انظر: طه باقر وبشير فرنسيس، "الخليقة وأصل الوجود-قصة الخليقة البابلية (اينوما-إيليش)"، مجلة سومر، مج5، ج1، مديرية الآثار القديمة، بغداد، 1949، ص ص11-35.

⁽³⁾- تيامة: الهة بدائية تمثل المياه المالحة في ملحمة الخليقة البابلية الإينوما-إيليش. أنظر:

Jeremy Black & Anthony Green, *Goods, Demons and Symbols of Ancient Mesopotamia An illustrated Dictionary*, 2^{ed}, the British Museum Press, London, 1998,

ولما كانت مياه دجلة والفرات مقدسة في نظر العراقيين القدماء، فقد كانوا الكهنة والمعزومون يتلون عليها تعويذات دينية بهدف الاستشفاء بها، ففي ترتيلة دينية مطولة نقرأ عن قيام الكاهن المعزم بتلاوة تعويذة على ماء مأخوذ من مياه النهرين ليُرش به على وجه المريض سبع مرات يقول فيها:

« دعهم يأخذون أقداحهم من الذهب،
دلاءهم من اللازورد النقي!
دعهم يسحبون المياه من أعلى....!
دعهم يرشوا (على المريض)!
دعهم يسحبون ماء التطهير!
دعهم يرشوا (على المريض)...!
دعهم يأخذون أقداحهم من حجر خولالو(hulalu)
دلاءهم من اللازورد [النقي]!
دعهم يسحبون المياه من المحيط ومن البحار الواسعة
مياه دجلة والفرات!
دعهم يرشوا (على المريض)!
دعهم يرفعون أقداحهم (من) حجر خولالو
دلاءهم (من) اللازورد [النقي]!
دعهم يسحبون (الماء)
دعهم يرفعون أقداحهم (?) (من) حجر خولالو،
دلاءهم (من) اللازورد النقي!
دعهم يسحبون المياه من المحيط من البحار الواسعة
دعهم يرفعوا [هم...من حجر خولالو
ودلاءهم من اللازورد النقي!
دعهم يسحبون المياه من المحيط من البحار الواسعة

⁽¹⁾- خزعل الماجدي، انجيل بابل، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 1998، ص31.

مياه نهر دجلة، مياه نهر الفرات
[دعمهم يرفعون] أقداهم الفضية
ودلاءهم الذهبية
[دعمهم يسحبون] ماء أولي من البحار الواسعة ⁽¹⁾.
ويبدو أن نهر الفرات كان أكثر قدسية من نهر دجلة، فالكهنة المعوذون
كثيراً ما كانوا يوصون برش مائه على المرضى، حيث اعتبر في نظرهم شافياً للأمراض
ومطهراً للأبدان من كل الأسقام ⁽²⁾، وإلى ذلك تشير الأبيات التالية من ترتيلة دينية
كانت تتلى عند النزول في ماء الفرات للحصول على الشفاء بالقول:
«أيها النهر خالق كل شيء حينما حفرتك الآلهة العظام
أقاموا أشياء طيبة على شطآنك وفي طيأت غمرِك
بنى الإله (أيا) ملك الغمر مقامه وأنعموا عليه بفيض من المياه لا نظير له
فيا أيها النهر العظيم، أيها النهر المجيد
يا نهر المعابد المقدسة مياهك تفرج الغمة فتقبلني برأفة
وخذ ما في بدني وارم به على شطآنك ⁽³⁾، غرقه عند ضفافك وغطه في أعماقك» ⁽¹⁾.

¹⁾-Albrecth Goetze, An Incantation against Diseases, *Journal Cuneiforme Studies*, Vol.9, No.1, University of Chicago Press, p15,16.

²⁾- محمود الأمين، المرجع السابق، ص229.

³⁾- إلى جانب القداسة الدينية التي أضفاها العراقيون القدماء، فقد جعلوا منه القاضي الحاكم بين الناس في بعض الجرائم الاجتماعية، وهو ما تشير إليه نصوص المواد القانونية الواردة في التشريعات العراقية القديمة فمثلاً المادة (02) من شريعة حمورابي تقضي بأن الشخص المتهم باستخدام السحر يُلقى في النهر المقدس-نهر الفرات- فإذا غرق أُلْتِ أَملاكه إلى متهمة أما (المادة 132) من نفس القانون فتنص على ضرورة اجتياز الزوجة المتهمة بالزنا (الاختبار النهري) من أجل تبرئة نفسها أمام زوجها واسكناً لشائعات الناس. انظر: عامر سليمان، القانون في العراق القديم-دراسة تاريخية قانونية مقارنة -، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987، ص228، وص252. كذلك ورد في قانون أورنمو الاحتكام إلى النهر في المواد (10)، (11)، أما قوانين العصر الآشوري الوسيط فتذكر أربع من موادها في اللوح الأول تناشد النهر من أجل الحكم وهي

وفي ترتيلة دينية أخرى نقرأ فيها ما يأتي:

« الماء الطاهر،

ماء الفرات الذي يجري في أرض طاهرة،

الماء الذي يخزن (في الخليج) ويحافظ عليه في الغور

الماء الطاهر الذي يطهره أيا

وأبناء الغور السبعة

الذين يطهرون الماء وينقونه صافياً براقاً

أمام والدهم أيا

أمام أمهم دمكينا

فليكن مطهر (المريض) وليكن صافياً براقاً»⁽²⁾.

ولما كانت الأرواح الخبيثة سبباً في انتشار الأمراض، فقد خلف العراقيون

بشأنها تعويذات يدعون فيها لها بالموت والحرمان من شرب مياه دجلة والفرات ومن

مذاق طعم حتى الماء العفن، وإلى ذلك تشير الأبيات التالية من التعويذة بالقول:

«ولطالما (ياجان) لا تخرج من جسد الانسان ابن الاله

ولطالما لا تفارق الجسم ولطالما لا تخرج

فحرام عليك أن تأكل، وحرام عليك أن تشرب

عسى ألا تصل يداك مفتاح أبي أنليل الذي خلقك وسواك

حرام عليك أن تذوق الماء سواء ماء البحر أو الماء العذب وحتى الماء العفن

(17، 22، 24، 25). انظر: فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ط2، وزارة الإعلام والثقافة،

بغداد، 1987، ص28، وص187، وص189، 190. للمزيد عن الاختبار النهري المقدس انظر: زيدان

خلف هادي الموزاني، " الاختبار النهري (التحكيم الالهي) في بلاد الرافدين"، مجلة الكلية الاسلامية

الجامعة، ع42، النجف، 2017، ص ص 493-512.

⁽¹⁾- أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات

الأثرية والمصادر التاريخية، ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983، ص443، 444.

⁽²⁾- محمود الأمين، المرجع السابق، ص ص 230، 229.

عليك ألا تذوق ماء دجلة ولا ماء الفرات ولا ماء الينابيع ولا ماء الترع
وإن أردت أن تطير إلى السماء فعسى ألا يكون لك جناح
وإن أردت أن تختفي في الأرض فعسى ألا تجد فيها مكان
فانقلع إلى حيث...»⁽¹⁾

كما استعملت مياه الآبار أيضا للعلاج، ولكن كان يشترط في استخدامها أن
تكون نقية ونظيفة كما تشير إلى ذلك التعويذة الآتية: "تجاه الحى، والحى الباردة
المضرة للجسد، ماء بئر لم تمسه يد... اسكب الماء على ذلك الشخص"⁽²⁾.
وإلى جانب العلاج لم يكن المريض يتورع عن دعاء الآلهة لتشفيه وتخفف
عنه ألامه، وفي ذلك استنجد العراقيون بالربة "عشتار" و "سين" و "شماش"
و "مردوخ" وغيرهم⁽³⁾، ومن أمثلة ذلك دعاء يتوسل ويخاطب فيه مريض الآلهة "كولا
" باعتبارها الهة الشفاء بأن ترفع عنه وطأة ما حلَّ به من سقم قائلًا لها:

« ارحمني العبد الذي يعظم سمتك الالهية

ابيني لكل ما يقوله، حضورك مهم عندما يتضرع إليك رافعا أكفه

تقبلي دعواته، واسمعي كل ما يتفوه به

تقليدي مكانك واحكمي بالعدل في قضيتته

أعيدي هدوءه وأضيئي ظلمته

حيث أنه يمكن أن ينزع ملابس الحزن ويرتدي العبادة

للعبد الذي أحنى هامته

ليطول عمره للأمر الذي لا تأثير له على ألوهيتك العظيمة

كولا، السيدة العظيمة التي دعامتها الآلهة ننورتا

دافعي عن قضيتته بقوتك، زوجك اللامع

الذي من الممكن أن يشفيه ببولوطسا رابي

⁽¹⁾ - محمود الأمين، المرجع السابق، ص 226، 227.

⁽²⁾ - نفسه، ص 231.

⁽³⁾ - سامي سعيد الأحمد، المرجع السابق، ص 90، 91.

الذي يركع أمامك يومياً»⁽¹⁾.

وفي نص آخر نقرأ عن توسل أحد الأشخاص الربّة "عشتار" أن ترفع عنه معاناته وتعود بأحواله إلى سابق عهدها، وكان من جملة ما طلبه من الالهة أن تشفيه من الأوجاع التي ألمت بجسده الهزيل، قائلاً لها:

«...يا ربة الرجال والنساء التي لا يدرك أحد خططها وأفعالها عندما تنظرين إلى المريض يُشفى وإلى الحي يحيا ...إني أصرخ إليك وكلي ألم وتعب وكمد، أنا خادمك التفقي إلي يا سيدتي وتقبلي صلاتي انظري إلي بإحسان واستمعي لضراعتي اشفقي على جسدي المهزول الذي تملأه الأوجاع اشفقي على قلبي المريض الذي تملأه الدموع ...اطردني من جسدي التعاويذ الشريرة، دعيني أرى النور الساطع...»⁽²⁾.

وفي دعاء آخر يُشيد فيه المريض بالاله "مردوخ" الذي كان له الفضل في شفائه من مختلف الأمراض والأرواح الخبيثة التي عصفت بجسده بعدما فشل العرافون والمعزّمون في تشخيص مرضه ومداواته، يقول فيه:

«...لقد أبعد (مردوخ) الرياح الشريرة التي تهب من الآفاق وأخذ مني أوجاع الرأس فأودعها في سطح العالم الأسفل وأرسل سعالِي الشديد إلى حيث كان في الآبسو والعفريت الذي لا يقهر أعاده إلى ايكور وأطاح بالعفريّة لأماشتو⁽³⁾ ودفع بها إلى الجبال

⁽¹⁾- فاتن موفق فاضل، المرجع السابق، ص 9، 10.

⁽²⁾- فراس السواح، المرجع السابق، ص 354، 355.

⁽³⁾- لأماشتو: هي عفريّة حى الأطفال وأمراض الرضع، وتعرف غالباً على انها ابنة الاله "آن"، وهي تظهر في المنحوتات الحجرية على شكل امرأة عارية الصدر ترضع من ثديها كلباً وخنزيراً. أنظر: د.ادوارد وآخرون، المرجع السابق، ص 150.

وأرسل القشعريرة والبرداء إلى المياه الجارية وإلى البحر
واجتثت جذور الوهن مني مثلما تجتث الشجرة
السهاد والنوم والقلق أخذهما بعيداً مثل الغيوم التي تملأ السماء
رفع حجاب الموت الذي يغطي عيني الغائمتين وشحد بصري
أذناي المغلقتان مثل الأصم فتحهما
أنفي الذي اختنقت أنفاسه من الحصى، شفاه ورحت أتنفس بحرية
لساني المربوط الذي لا يستطيع الكلام حرّره، وصار كلامي واضحاً
حنجرتي المتورمة التي لا تستطيع بلع الطعام فتحها وأزال ورمها
وها أنذا أسير في الشوارع حرّاً من كل ألم ومرض...»⁽¹⁾.
وإلى هذه الأدعية كان المريض أيضاً يتقرب إلى الالهة الشافية بالقرايين
لتُعجّل بشفائه، فالآلهة حسب معتقدات القوم الدينية خلقت البشر لخدمتها
وتكريس القرايين لها وهو ما تشير إليه ملحمة الخليقة البابلية "الإينوا-إيليش".

⁽¹⁾- فراس السواح، المرجع السابق، ص392، 393.